

هاجس التماسك الاجتماعي في الفكر العربي القديم والمعاصر

د.

لبيوض مسعود
جامعة الجزائر 2

مقدمة:

من الواضح أنّ التأثير الذي أحدثته الفلسفة في أرجاء العالم العربي والإسلامي لا يزال إلى يوم الناس هذا باهتا، وأنّ تجليات الفاعلية الفلسفية المختلفة فيه ليست ظاهرة للعيان، بل إنّ صوت الفلسفة ذاتها بوصفها فاعلية نقدية واستكشافية يظل غير مسموع. ومع هذا، لا بد من القول إنّ الجهود المبذولة من قبل التيارات الفكرية المتنوعة ليست هيّنة، ولا بد من الاعتراف بالمعاناة التي لقيها بعضهم في سبيل نشر الخطاب الفلسفي وتوسيع مجالاته، في مجتمع وبيئة غير مشجعة على النظر الفلسفي، بل هي بيئات في العديد من الأحيان معادية له.

ما الذي يدفع مفكرا ما إلى النظر في الفلسفة والاهتمام بها في محيط لا فلسفي، بل في محيط معادٍ للفلسفة، هذا التساؤل الذي ينبغي أن نطرحه، لماذا يلجأ العلماء من ذوي المكانة العليا في مجالات الطب والقضاء أو غيرها إلى الاشتغال بالنظر الفلسفي رغم علمهم بأنّ الفلسفة ممارسة غير مرغوب فيها في مجتمعاتهم؟ إنّ الجواب يرجع بشكل واضح إلى إيمانهم بأهمية هذه الفلسفة في حياة الفرد والمجتمع.. وهذه المداخلة تدخل في هذا الإطار، إذ سنحاول توضيح جانب من تلك الجهود التي سعى أصحابها إلى الحفاظ على وحدة المجتمع وتماسك فئاته، فما هي القيمة الحقيقية لهذه الاجتهادات، ولماذا لم تكن كافية في إحداث تغييرات فعلية في المجتمعات العربية والإسلامية؟

1- الوطن العربي والنظرة الاختزالية إلى الفلسفة:

الانعزالية والتفوق على الذات والبعد عن الواقع، والاشتغال عنه بما لا يتّصل بقضايا العصر هي الصورة النمطية التي تشكلت في العالم العربي عن الفيلسوف، لا يختلف في ذلك قطر من الأقطار ولا عصر من الأعصار، كأنّ المشتغل بالفلسفة من طينة أخرى مغايرة لعامة الناس، مادام الشخص الذي لا يملك رغبة في مشاركة بني جنسه همومهم ومشاكلهم، ويتعالى عما يؤرقهم ويقض مضاجعهم، كأنّ له برجا عاجيا منعزلا يتنعم فيه بالتحلل من كلّ التزام، والتنصل من كل عهد، تأملاته لا تنعكس على حياة الناس ولا تريحهم.. هي أقرب إلى ترف لا يستسيغه أغلب الناس، واسترسال في مسائل أبعد ما تكون عن الأولويات التي يرسمها الانسان العربي لحياته ويوميته. فما هي أولوية المواطن العربي في وطننا العربي اليوم، وفي ظلّ أوضاع التمزق التي يعيشها، هل يركز اهتمامه على النظر في ماهيات الأشياء والعلل القصوى، والنظر في مصير الانسان والموت، وفي طبيعة الشرّ وأصله، وفي معاني الوجود.. لقد غدت هذه المسائل ترفا لا يطيقه العالم الاسلامي العربي اليوم في ظلّ أوضاعه الراهنة، إنّها مسائل يبحثها المترفون والفضوليون، ولا ينظر فيها من غاب عنه الشعور بالأمن، أو ذاك الذي لا يملك قوت يومه.. وهو حال جزء كبير من عالما العربي الذي لا يزال يوحّد بين الفلسفة والميتافيزيقا، وكأنّ الفلسفة لا تتضمن إلا مسائل بعيدة عن الواقع(1)..

إنّها الصورة النمطية التي لم تتغيّر ولم تتبدد رغم الجهود الجبارة التي بذلها مجموعة الفلاسفة والمشتغلين بالفلسفة، ورغم ثورة الاتصالات التي تتيح لانسان اليوم ما لم يتمكن منه الانسان القديم إلا بجهد مضاعف جهيد، ورغم أنّ الفلسفة صارت تدرّس في أغلب الأقطار العربية، ومنذ زمن غير يسير، مما يجعلنا نفترض أنّ أجيالا معتبرة صارت ملّمة بتنوع الخطاب الفلسفي.. وقد نقدم تفسيرات لهذا النفور، ونظريات هدفها أن تشرح وتشرح، ولكن النتيجة واحدة، والصورة باقية.. وبقي التساؤل حول جدوى الفلسفة يعود المرّة تلو الأخرى..

2- روح الالتزام عند الفلاسفة القدامى:

الفلسفة في بداياتها، وبمعناها الواسع، هي النظر في حقائق الأشياء، إنّها المحاولات التي يبذلها الإنسان في محاولته الرّد على ما يستوقفه من أسئلة لامناص منها، يتعلق بعضها بالوجود العام وقوانينه، وبعضها

بالمصير والطبيعة الانسانية وغيرها من المحاور التي تفجرت منها المذاهب الفلسفية، أما اليوم، فهي بين زحمة من العلوم، فقد أخذ مدلولها ينحصر شيئا فشيئا، إذ صارت، وفق منظور معين، تهتم بتحليل الألفاظ ومعانيها، والبحث في القضايا المنطقية، مثل النظر في القانون الطبيعي أهو يقيني أم تجريبي، والبحث في أساس الاستقراء، والتحليل المنطقي لنتائج العلم..

فهل يشير هذا إلى أنّ الفلسفة فقدت بريقها بالنسبة إلى أغلب الناس ولم تعد تعني سوى فئة قليلة منهم؟ إنّ مما لا شك فيه أنّ الفلسفة، من حيث المبدأ، ليست حكرا على فئة ما، لأنّ كنه الانسان وتحقيقه لانسانيته متوقف على تقديره للأشياء ووزنها بميزات قيمه ومعاييره، ليرى ما عسى أن يكون لها من معنى بالنسبة إليه، فلا يمرّ يوم إلا وهو يختبر أحوالا تدفعه إلى طرح أسئلة، مما يشير إلى ارتباط الفلسفة بالحياة اليومية للانسان العاقل واختراقها لشتّى أحواله وأوضاعه.

ومع ذلك لا ينحصر دور الفلسفة في الشغف المعرفي والفضول وحبّ الاستطلاع، كلا إنّ لها أدوارا أخرى رائدة وشديدة الأهمية، فما من موقف اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي إلا وله وشائج قوية بنظرة فلسفية عميقة، إيجابا كان ذلك أو سلبا، والشواهد كثيرة في تاريخ الفلسفة على الإسهامات التي أسهم بها الفلاسفة، ولعل أبرز الشخصيات العلمية سقراط في الأمة اليونانية، وهو الذي أخذ على عاتقه مجابهة مثيري الفتنة من السوفسطائيين، الذين استخدموا أسلوب الاستتارة والخداع وضروب التضليل والنفاق، وديكارت في الشعب الفرنسي الذي أشاع العقلانية والمنهجية، وهيجل في ألمانيا وبنجامين فرانكلين في أمريكا وديكارت في إنجلترا (2)..

وبالنسبة إلى العالم العربي الإسلامي، وهو ما يهمنا أكثر هنا، يمكن القول إنّ مهمة الفلاسفة فيه كانت شديدة التعقيد، وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى موجة العداء التي جوبهت بها الفلسفة من جهات معينة، فكان على الفلاسفة بذل جهد مضاعف، تبيئة الفلسفة من جهة، والتنظير لها والبحث قضاياها بعد ذلك.

الفلسفة إذن شديدة الارتباط بالمجتمع الذي تنشأ فيه، فهي، كما يقول حسن حنفي، ليست "مجرد فكر بلا زمان، بلا مجتمع وبلا حضارة، إنّما هي نظام فكري ينشأ في عصر، ويقوم به جيل، ويخدم مجتمعا ويعبر عن حضارة. وهذا ما وضعت لأجله علوم انسانية بأكملها مثل علم اجتماع المعرفة أو الانثربولوجيا الحضارية.." (3)

ومن المفيد الانتباه إلى ملاحظة شديدة الأهمية وهي أنّ من أهداف مساعي ومجهودات فلاسفة الإسلام في التوفيق بين الشريعة والحكمة، والتي يظهر أنّها استنفذت جهودا كبيرة عندهم، تمثلت في التأسيس لمجتمع قوي ومحصن ضد أسباب الفرقة والتمزق، لهذا نجد هذه الفكرة مركزية وذات أهمية قصوى بالنسبة إلى غالبية مفكري الإسلام، وإن كان شكل التوفيق يختلف من مفكر إلى آخر، نجد هذا ليس فقط عند الفلاسفة، بل حتى عند غيرهم من التيارات في الفكر الإسلامي، ولعلّ ابن رشد هو الذي اهتم أكثر من غيره بهذه المسألة، فنجده يقول: "ومن قبل التأويلات، والظنّ بأنها ممّا يجب أن يصرّح بها في الشرع للجميع، نشأت فرق الإسلام حتى كفر بعضهم بعضا، وبدّع بعضهم بعضا، وبخاصة الفاسدة منها.. فأوقعوا الناس من قبل ذلك في شنان وتباغض وحروب، ومزّقوا الشرع وفرّقوا الناس كل التفريق.." (4)

ولنلاحظ هذا الاهتمام بالتنظير للعلاقة بين المنقول والعقول، فالهدف منه لا ينحصر فقط بما عبّر عنه الغزالي بـ"حراسة قلوب العوام من تشويش أهل البدعة"، بل أكثر من هذا، إنّ بالنسبة إلى الفلاسفة حفظ صفّة الأمة، وتحصينها ضدّ التمزق والتصدّع، وللنظر إلى عبارة أخرى لابن رشد يقول فيها: "فإنّ النفس ممّا تخلل هذه الشريعة من الأهواء الفاسدة والاعتقادات المحرّفة في غاية الحزن والتألم، وبخاصة ما عرض لها من قبل من ينسب نفسه إلى الحكمة، فإنّ الأذية من الصديق هي أشدّ من الأذية من العدو. أعني أنّ الحكمة هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة، فالأذية ممن ينسب إليها هي أشدّ الأذية، مع ما يوقع بينهما من العداوة والبغضاء والمشاجرة، وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجواهر والغريزة.." (5)

من أبرز أهداف التوفيق بين الحكمة والشريعة إذن، الوصول بالمجتمع إلى مستوى راق من الحصانة، وضبط التأويل وحصره في الفئة التي هي أهل له، يجعل من اختراق النصوص الدينية واستغلالها في الصراعات من أجل الاستقواء على الخصوم، ودعم الطروحات الإيديولوجية الضيقة أمرا غير ذي جدوى، وبالتالي دعم الوحدة وصفوف المجتمع..

إنّ هذه الحلول النظرية التي قدّمها الفلاسفة العرب تنمّ عن وعي تامّ بأهمية احترام الكفاءات ومراعاة التخصصات، وليست أبداً تكريسا للنخبوية المقيّنة التي تضع حدودا بين الفئات الاجتماعية عوض أن تنجز جسورا بينها. إنّ القضاء على التفاوت والنخبوية بين الفئات المتنوعة لا يكون بالتسوية بين شرائح ذات مدارك متباينة، ونفي وجود العامّة والخاصّة في المجتمع، بل يكون بقلب المعادلة وتقليص الهوة بينها من خلال تعميم التعليم وإتاحة الفرص أمام الجميع..

ومن خلال ما سبق يمكن أن نفهم التصنيفات والتحليلات العميقة التي صاغها فلاسفة العرب، والتي كان صادرة عن هاجس متوقّد استولى عليهم جميعا هو هاجس التماسك الاجتماعي، أمام الاستغلال الفظيع لنصوص الشرع في تحقيق أهداف إيديولوجية ومكاسب سياسية ظرفية ضيّقة، وهو ما عملت من أجله فرق هدامة كثيرة، ولاشك أنّ الهدم الذي نتحدث عنه هنا إنّما يخص بالدرجة الأولى البنيان الاجتماعي الذي تأكلته الانقسامات والانحياز لغير الحق.. وهنا، ورغم وعينا بعدم كفاية الإسهامات التي قدّمها هؤلاء الفلاسفة القدامى وانعدام استجابة اجتماعية ملائمة، نتساءل عمّا قدمه مثقفونا في هذه الأيام العصبية التي لم تعرف فيها أمّتنا العربية والإسلامية تصدّعا أخطر، وتمزّقا أعمق، ضمّ مجتمعاتنا من شرق الأمة إلى غربها، ومن جنوبها إلى شمالها، بل نتساءل اليوم عن وعي نخبتنا بخطورة البربرية المعاصرة على حدّ تعبير علي حرب،⁽⁶⁾ والتي تكاد تعصف بكل شيء، ماذا قدمنا من تحليلات لفهم هذه الظاهرة، ومن حلول لتحجيم ضررها؟ هل نكتفي بالقول إن تلك الحركات التي تمزّقتنا كل يوم ليست سوى مخلوقات مخبرانية غريبة، بينما تتشوّه على يديها صورة الإسلام أكثر فأكثر، ولماذا نكتفي بإحصاء مأسينا التي تفوق بكثير المآسي التي أصابت الغرب من الظاهرة؟

3- النظرة الإصلاحية والتجديدية عند مفكرينا المعاصرين؟

سعى فلاسفة الإسلام القدامى إلى التأسيس لأخلاقيات الحوار ولثقافة التعايش والتسامح بين تيارات الفكر الإسلامي قبل أي شيء؛ فالاختلاف سنّة كونية لا سبيل إلى إنكارها أو نفيها، ولأجل تقادي الفرقة والتصدع الاجتماعي نادى هؤلاء الفلاسفة وعلى رأسهم الكندي والفارابي وابن رشد بمجموعة من الآداب التي ينبغي الالتزام بها من قبل جميع الفاعلين، مجتهدين ومقلّدين، من تقادي اللإقصاء وتغليب الحوار.. ولاشك أنّ إفساح المجال للعقل، ومنحه نصيبا في فهم الشرع كفيل بتجنيب الفرد والمجتمع أشكالا متنوعة من الطغيان السياسي والديني..

ومن الحقول التي اهتم بها فلاسفة العرب وتخص سلامة المجتمع والتأسيس له اهتمامهم بالعلم المدني، لقد ألفوا في العلم واهتموا بمسائله، وشرّحوا مسائله وتعمقوا فيها، لاسيما ما تعلق بالأسس التي يقوم عليها الاجتماع البشري.

إن وظيفة الفلسفة لا تتعلق بجانبها النظري فحسب، بل إنّ الجانب العملي فيها لا يقل قيمة وأهمية، والعلم المدني إذ يهتم بهذا الجانب، فإنّه أراد أن يرتقي في الجانب العملي إلى مستوى راق من التدبير الانساني، ثم الارتقاء بهذا التدبير إلى مستوى العلم، ومن المعلوم أن العلم المدني يتكوّن من جانبين أولهما هو علم الأخلاق والثاني العلم السياسي، وهو ذو طبيعة فلسفية، لأنّ الفيلسوف يسعى إلى بناء ما ينتهي إليه حول التنظيم السياسي أو حول غايات الحياة السياسية والاجتماعية على نظام فلسفي أوسع وعلى عقائد أعمّ، وهذا يعني أنه يستوحي نظراته السياسية والاجتماعية من نظرة أكثر شمولاً وتكاملاً

ومن الواضح أن فلاسفة العرب أقاموا العلم السياسي على العلم الأخلاقي، وهذا ليس غريبا على فلسفة تحمل طابعا مثاليا في أساسها، ذلك أنّ القيم الخلقية تقوم على نظرة خاصّة إلى الانسان وإلى الغاية من وجوده، ولكن بما أنّ المدينة والمجتمع ضروريان للانسان، فإنّه لا يستكمل إنسانيته وكماله إلا باعتباراه جزءا من المدينة، وحتى إن كان الكمال صعب المنال، فإنّ سعادة المجتمع ووحدة المدن تقتضي أن تكون الأفعال البشرية على مقتضى الفضيلة، وأن تتأسس على تكامل الأفراد، فتخدم الكمالات بعضها البعض، فالحاصلون على أدنى الكمالات يكونون في خدمة الحاصلين على أسماها، ولذلك فإنّ الفضائل النظرية أو الكمال النظري هو الذي ينبغي أن يحكم أولئك الذين لهم استعداد طبيعي لاكتساب الكمالات العملية، وهو الحال في النفس البشرية التي يكون السؤدد فيها للعقل، هو بناء نظام متماسك من المبادئ، والتأسيس لمرجعية للإرادة وللعمل معا..⁽⁷⁾

أما الذين لا يلتزمون بالمبادئ الأخلاقية ولا يأخذون من الفلسفة سوى رونقها، فهم ليسوا في مستواها، ويعيدون عن الرسالة التي تؤذيها، مثلما يقول ابن رشد دائما: "وأما من يتعاطون الفلسفة ممن لم تكتمل فيهم هذه الصفات، فالأمر فيهم بين أيضا، فهم مع كونهم لا يسدون نغعا للمدن، فإنهم مع ذلك أكثر إضرارا بالفلسفة، وذلك لأنهم على الأغلب يميلون ميلا إلى الشهوات وإلى جميع الأفعال القبيحة كالجور والظلم، إذ ليس في جوهرهم فضيلة تمنعهم من الإتيان بهذه الأفعال، ولا يصدقون أيضا في أقوالهم التي يرهبون بها أهل المدينة فيما يأتون به من تلك الأمور ويكونوا عارا على الفلسفة، وسببا في إبداء كثير ممن هم أولى منهم بها، كما هو الحال في زماننا.." (8)

هكذا اهتمّ فلاسفة العرب من خلال فلسفتهم السياسية بتقديم تصوّر واضح للعيش المشترك، وحاولوا فيها معالجة كافة أنواع الخلل التي عرفتھا المجتمعات الإسلامية وفق رؤية تكاملية بين فئات المجتمع، فلا يكفي القول إنّ الإنسان مدني بطبعه، بل لابد من آليات تضبط علاقات الجوانب السياسية والأخلاقية.. وهنا مرّة أخرى لا نجد استجابة اجتماعية لهذه التظلمات العميقة، والبحث في سبب هذا يتطلب مجالا فسيحا..

وبعد جمود دام قرون طويلة ظهرت محاولات ترمي إلى النفاذ إلى عمق المجتمعات العربية والتأثير فيها، حتى تستطيع استرجاع توازنها، وإحلال العلم المكانة التي ينبغي أن يحتلها في كل مجتمع متحضّر، بعد الصدمة الحضارية التي وجد العرب والمسلمون أنفسهم أمامها. ومن أبرز تلك المحاولات نجد الأفكار الفلسفية الرائدة التي طرحها جمال الدين الأفغاني فأخذت طريقها إلى الشعوب العربية والإسلامية، وكانت سببا في ثورات تحريرية وسياسية واجتماعية في الشرق، ومن أهم هذه الثورات ثورة عرابي في مصر.. (9) مثلما كانت أفكار الطهطاوي ولطفي السيد على ثورة 1919 أيضا..

ومن البديهي أن الصدى والتأثير الذي كان لهذه الشخصية قد أسهم في انتشار الحركة الإصلاحية التي أخذت على عاتقها إصلاح المجتمعات العربية، وتخليصها من أسباب التخلف والجهل والتحرّج، ولكن الأفكار الفلسفية الرامية إلى تأسيس الوعي الاجتماعي اختلفت وتنوّعت، وظهرت أسماء ومشاريع عديدة ليس هذا مجال التفصيل في منهجيتها، ولكنها اشتركت في رغبتها الجامعة في إحداث نهضة تتناسب مع إمكانات الأمة وتاريخها الحضاري المشرق، ذلك أنّ "هاجس التغيير والتجاوز عند مفكري النهضة هو استئناف لهاجس ولوج التاريخ والفعل فيه.." (10) بما يتناسب مع خصوصيتنا الثقافية.

ولاشك أنّ التنوّع الذي يعرفه عصرنا من ناحية كثرة وتباين المشاريع والنظريات التجديدية لا يقلّ عمّا كان عليه الفكر الفلسفي قديما، ولكن الذي لا مناص منه هو ضرورة الرّفْع من مستوى التجنّد من أجل استغلال جميع طاقات الأمة العربية الإسلامية، لأنه لا مكان للمتقاعدسين في تعقيدات الحياة المعاصرة والفاعلية التاريخية.. ولا يسعنا هنا إلا أن نتساءل عن أسباب عزوف كثير من مثقفينا اليوم عن الانخراط في قضايا الإصلاح السياسي في وقت تتغيّر فيه دساتير الدول العربية والإسلامية باستمرار، تاركين الأمر لرجال الصحافة والسياسيين، رغم أنّ بعض الجوانب فيها تتطلب خبرات تنظيرية أعمق بكثير.. خاتمة: الفلسفة وضرورة استئناف الحضور:

إذا كان القدامى من فلاسفة العرب قد أدوا دورهم في تبيين الفلسفة في البيئة العربية، وحاولوا الاستفادة من فاعليتها الإيديولوجية والاجتماعية، فإن ما علينا تبيينه هو الدور الذي ينبغي أن تلعبه في زماننا البائس..

لاشكّ أن أبرز دور كما قلنا هو ترسيخ البعد النقدي والمراجعة المستمرة للذات من أجل الرّفْع من الوعي الحضاري لدى الأجيال الناشئة على كافة المستويات، والحضور الفلسفي ينبغي أن يتزامن مع رفْع جذري للعوائق التي تمنعه من إحداث تأثير حقيقي في مجتمعاتنا، وتحقيق الشروط اللازمة لعمل النخب التي تقود قاطرة الانطلاقة والتقدم المأمول..

الهوامش:

(1) م. ع. مرجبا، المسألة الفلسفية، بيروت-باريس، منشورات عويدات، ط.3، 1988، ص.10.

(2) محمد علي أبوريان، الفلسفة ومباحثها، القاهرة، دار المعارف، ط.4، دت، ص.

(3) حسن حنفي، موقفنا الحضاري، ضمن: الفلسفة في الوطن العربي المعاصر، بيروت، م د و ع، ط.2، 1987، ص.13.

- (4) ابن رشد، فصل المقال، تحقيق عبد الوحد العسري، بيروت، م د و ع، ط.4، 2007، ص.121،122.
- (5) نفسه، ص.125.
- (6) علي حرب، رهانات الفلسفة في مواجهة ثالوث العدمية والبربرية والكارثة، ضمن، الفلسفة وأسئلة الراهن، مخبر الدراسات الفلسفية والأكسيولوجية، 2013، ص. 48.
- (7) عمار طالبي، النظرية السياسية لدى ابن رشد، ضمن: مؤتمر ابن رشد، الجزائر، وزارة الثقافة، 1982، ج.1، ص.-224-228.
- ⁸ ابن رشد الضروري في السياسة، ترجمة أحمد شحلان، بيروت، م د و ع، ط.1، 1998 ص.141.
- (9) محمد علي أبو ريان، المرجع السابق، ص.9.
- (10) محمد وقيدي واحميده النيفر، لماذا أخفقت النهضة العربية، دمشق، دار الفكر، ط.1، 2002، ص.14.